الفصل الخامس

الإسلام والحضارة الجديدة

١ – القوة الروحية فى الإسلام

يخطئ الذين يظنون أن مصير الإنسانية رهن برخائها المادى ، وأن تطورها إلى ناحية الكمال يتأثر بهذا الرخاء . إنما يرتبط مصير الإنسانية بحياتها الروحية وبالإيمان الحق بهذه الحياة . والتاريخ شهيد بذلك . فحيثما هبطت الحياة الروحية إلى أوضاع مادية نشأت الأزمات الإنسانية الخطيرة ، وآذن التاريخ أن يتجه وجهة جديدة وإن بلغ الرخاء أعظم مبلغ وحيثما سمت الحياة الروحية إلى المعانى العليا نشطت الإنسانية فى اتجاهها نحو الكمـــال وازدادت حرصاً على بلوغ الغاية من معرفة الحق والخير والجمـــال ولو لم يكن الرخاء عامًّا ، ولو كان عيش الناس أدنى إلى الشظف والتقشف .

هذه حقيقة يشهد بها التاريخ القديم ويشهد بها التاريخ الحديث . ولئن كانت القوة المادية تستطيع مقاومة القوة المادية لهى عاجزة كل العجز عن مقاومة القوة الروحية . وحسبنا مما شهدنا أخيراً ما قاومت به الهند إنجلترا بزعامة « المهاتما غاندى » . فقد حتم زعيم الهنـــدوكيين الروحى على أصحابه ألا يقاوموا قوة الحكومة المادية بأية مقاومة إيجابية . وطلب إليهم أن يكتفوا

بالمقاومة السلبية ، وأن يأبوا معاونة المعتدين عليهم ، وأن يستهينوا بالموت فى سبيل عقيدتهم هذه ، فكانت تلك قوة أعظم من كل قوة مادية إيجابية تستطيع الهند فى وضعها الحاضر أن تقاوم بها إنجلترا . وإننى لعلى ثقة من أن هذه الحال إن استمرت عن عقيدة صادقة وإخلاص وإيمان قديرة على بلوغ كل الأغراض التى يراد أن تبلغها ، وهى إذا كانت قد قصرت دون الوصول إلى الغاية كاملة فلأن القائمين بهـا لم يستمروا فيهـا إلى النهاية .

وفى التاريخ أكثر من شاهد على قوة الحيوية الروحية قوة لا يمكن لقوى المادة وإن اجتمعت أن تتغلب عليها . وانتشار المسيحية فى روما أول أمرها وما احتمل المسيحيون من اضطهاد وتعذيب وقتل شاهد على ما أقول . وما حدث فى مصر كذلك من تعذيب المسيحيين ومن تغلب المسيحية ، على رغم هذا التعذيب ، شاهد آخر . على أن أقوى شاهد فى تاريخ الإنسانية على اقتدار القوة الروحية على الانتصار والظفر بقوى الحياة المادية كلها إنما هو ما حدث حين قام « محمد » النبى العربى فى شبه جزيرة العرب يدعو إلى عبادة الله ، وإلى تحطيم الأصنام ويجادل اليهود ويجادل النصارى ويصل بقوته الروحية التى سمت إلى الذروة من قوى الروح إلى إقرار التوحيد فى شبه الجزيرة ، وإلى التمهيد لانتشاره بسرعة لم تعرف الأديان الأخرى نظيرها فى أنحاء العالم كله .

لقد كانت الوثنية هى الدين الغالب فى بلاد العرب حين بدأ « محمد » يدعو إلى الإيمان بالله وحده ، والعبودية له وحده ، والمساواة أمامه ، والإخاء فيه . لكن الأديان المعروفة يومئذ وأقواها اليهودية والنصرانية كانت معروفة فى بلاد العرب ، وكان لها دعاة وأتباع . وكانت المجوسية الفارسية معروفة ،

إذ كانت الفرس تتاخم بلاد العرب بسلطانها على الحيرة وعلى اليمن . فلما بدأ النبي العربي دعوته كان أول ما اتجه بها إلى عشيرته الأقربين من عباد الأصنام . ومع أنهم كانوا أصحاب سلطة ومجد ، ومع أنهم كانوا القائمين بتجارة بلاد العرب فيما بين قبائلها المختلفة ، والقائمين بها بين هذه القبائل والبلاد المجاورة لبلاد العرب كالحيرة والشام . ومع أنهم كانوا بذلك أولى بأس مادى شديد فإن القوة الروحية التى دعا بها « محمد » إلى التوحيد قد تغلغلت على أموالهم وعلى بطشهم وبأسهم . وسرعان ما كسبت لذلك أنصاراً جعلوا يزدادون عدداً بتوالى السنين وجعل عددهم يزداد سراعاً كلما تبين الناس هذه القوة الروحية وسموها فوق الاعتبارات التى يجرى الناس وراءها .

فلما آن « لمحمد » أن يهاجر إلى يثرب ، ووجد اليهود من أهل الكتاب بين أهلها يؤمنون بالله ، وادعهم وعاهدهم . لكنهم ما لبثوا حين رأوا قوته الروحية أسمى من كل ما يعرفونه أن برموا به وأرادوا إيقاع الفرقة بين صفوف أتباعه بالدسيسة وبالخداع وبالنفاق . والقوة الروحية الصادقة لا تعرف هذه الوسائل التى يلتمس بها سواد الناس سلطان الجاه وسلطان المال ، لذلك أسرعت الخصومة إلى القيام بينهم وبين المسلمين المعتزين بقوتهم الروحية ، المستهينين بالموت فى سبيلها ، إيماناً منهم بأن الدعوة للحق جل شأنه أسمى غرضاً فى الحياة لكل من اهتدى إلى الحق عن إيمان وبصيرة .

وخاصم اليهود « محمداً » ومن تبعه فدارت عليهم الدائرة واضطروا إلى الجلاء عن شبه جزيرة العرب كلها مع أنهم كانوا بيثرب أصحاب السلطان النافذ من الناحية المادية لأنهم كانوا أصحاب المال فيها . فأما النصارى فلم يخاصموا « محمداً » والمسلمين مخاصمة اليهود إياهم لأن

المسيحية تفرقت شيعاً منذ عهودها الأولى . ودب إلى أتبـاع عيسى شقاق أدى إلى الجدل المادى حول الألفاظ وأدى إلى تصوير الحياة الروحية تصويراً مادياً يسيغه الخيال ويفتن فى تلوينه افتناناً يزيد فى هذه الشيع والفرق ويدخل إلى حياتها الروحية من التعقيد مالا تسيغه بساطة هذه الروح بساطة هى مبعث قوتها . ومن ثم اتبع كثيرون من النصارى « محمداً » وبقى آخرون على نصرانيتهم منزوين لا يثيرون ما أثار اليهود من حرب وجدال انتهى بهم إلى الجلاء عن بلاد العرب .

وكان أمر المجوسية أضعف من أمر اليهود والمسيحية فى بلاد العرب فلم يكن لذلك جدال ولا نضال بين أتباعها القليلين وبين الدعوة إلى التوحيد .

على أنه إذا كانت نصرانية بلاد العرب قد آثرت مسالمة « محمد » والمسلمين والذين آمنوا بدعوته فإن الإمبراطورية البيزنطية المتاخمة لبلاد العرب خاف أصحاب الحكم فيها على نفوذهم أكثر مما تمسكوا بدينهم . فآثروا أن يناصبوا المسلمين الحرب على أنها حرب سياسية لا حرب عقيدة ودين ، وحيث ترتطم السياسة ومداوراتها مع العقيدة القائمة فى النفس على إيمان لا يهاب الموت تتحطم السياسة وأساليبها وقواها وتنتصر العقيدة الصادقة والإيمان المخلص . لذلك لم تمض سنوات على اختيار الله نبيه إليه حتى كان سلطان المسلمين قد أظل بلاد الشام الخاضعة للإمبراطورية الرومانية الشرقية كما أظل بلاد فارس المجوسية ، وفى هذه البلاد التى فتحت أبوابها للمسلمين قام الدعاة يدعون إلى الله فلم يلبث أهل هذه البلاد أن رأوا بساطة الإسلام وسمو وجمال الدعوة الخلقية القائمة على الإيمان فيه وما يقيم بين المؤمنين به من إخاء صادق فى الله ومن بر وتقوى .

هنالك انشرحت صدور الأكثرين من أهل هذه البلاد للإيمان ، فآمن منهم من آمن وبقى على دينه من بقى . لم يكرهه حاكم على التحول عنه أو تبديله .

ولم يمض قرن واحد على خروج الدعوة الإسلامية من بلاد العرب حتى كان الذين دانوا بالإسلام مئات الألوف . وحتى كانت قوة الإسلام الروحية قد غزت القلوب والعقول ببساطتها ومخاطبتها النفس الإنسانية فى أعظم نواحيها سموًّا وعظمة . لكن أوضاعاً مادية من أوضاع أهل الأديان الذين اعتنقوا الإسلام ما لبثت أن تسربت إلى بعض نواحيه ، كما أن دعايات سياسية عملت جهدها لتكثر من هذه الأوضاع المادية . وقد خيف أن تفشو بين المسلمين الفرقة والتشيع كما فشت فى المسيحية فيكون لها على المسلمين ما كان لها من الأثر على المسيحيين ولو أن ذلك حدث واستفحل أمره لكان الطامة الكبرة . لكن ما حدث منه ، وما أضعف بحدوثه هذه القوة الروحية العظيمة التى جاء الإسلام بها وانتشر سلطانها لم يؤثر لحسن الحظ ، على جوهر الدين وعلى أساسه القائم على التوحيد . وهذا هو ما جعل المسلمين بعد أن طغت عليهم دول كثيرة يحتفظون بإسلامهم ولا يبتغون غير الإسلام ديناً . وذلك ما جعل القوة الروحية التى امتاز بها الإسلام تظل محتفظة بكيانها وإن أضعف منها هذا الذى حدث وأخضع أهلها لغيرهم من الدول .

ولو أن هذه القوة الروحية عادت تملأ نفوس المسلمين اليوم كما كانت تملأ نفوسهم فى صدر الإسلام وفى عهوده الأولى لما استطاعت قوة مادية أن تتغلب عليها وإن آزرتها معجزات العلم بكل سلطانها . وليس هذا العود بالأمر العسير إذا تضافرت جهود المسلمين الصادقين عليه . ولو

تضافرت هذه الجهود لأسدى أصحابها للإنسانية يداً ولأنقذوها من أزمة تعانيها وتعالج الخروج منها فلا تجد إلى الخروج من سبيل .

٢ – أوربا والإسلام ولم لا يتفاهمان ؟ *

أما أنه ليس هناك تفاهم بين أوربا والإسلام فهذا أمر لا شك فيه ، غير أن كثيراً من الأوربيين يرجعون هذا إلى الدين ، وهم يقولون إن المسيحية والإسلام عاشا فى خصومة مستمرة منذ ثلاثة عشر قرناً ، ولذلك كان من الطبيعى أن ينشب بينهما الخلاف ، وأن لا يتم التفاهم بين أوربا والإسلام . تلك فكرة مخطئة ، وإذا كان فيها ظل من الحقيقة فهو بمقدار ما فى قولنا إن فرنسا وإنجلترا لم يستطيعا التفاهم قبل سنة ١٩١٤ . فقد كانتا قبل هذا التاريخ عدوتين كأشد ما تكون عداوة ونفرة وخصاماً . وليس من السهل على إنسان يحكم عقله فيما يعرض له من مظاهر أن يقبل نقاشاً من هذا النوع ، إذ أن هاتين الدولتين متفاهمتان تفاهماً تاماً ، وليست الأفكار الديموقراطية التى شاعت فى فرنسا سنة ١٧٨٩ إلا نفس الأفكار التى جاءت بها الثورة الإنجليزية فى سنة ١٦٨٨ ، وهى هى التى هيأت لما نتج عنها من تطورات . وهذا نفس ما وقع بين أوربا والإسلام . فإن أوربا قد استفادت كثيراً من الجهود العلمية والفلسفية التى جاءت بها

* وكانت صحيفة الكايبه دى سيد التى تصدر فى فرنسا قد بعثت إلى الدكتور هيكل تطلب إليه أن يكتب مقالا بالفرنسية لينشر فى العدد الذى خصصته هذه الصحيفة – للإسلام والعرب – فبعث إليها بهذا المقال عن أسباب عدم فهم أوربا للإسلام وما يراه من الوسائل الكفيلة بخلق تفاهم بينهما . وقد ترجمه الأستاذ أحمد عبد الغفار المحامى (١٩٣٦) .

الدولة العباسية فى العصور الوسطى . ولا أحسب أنى أتهم بالمغالاة إذ قلت إن المسلمين هم الذين فتحوا عيون أوربا على الحضارة والفلسفة اليونانية ، وذلك عن طريق نقل آثار أفلاطون وأرسطاليس إلى العربية وتعليقهم على هذه الآثار . ولم يمنع الدين المسيحى ولا الدين الإسلامى أن تستفيد أوربا من هذا الجهد الإسلامى .

ودليل آخر على أن هذه فكرة مخطئة هو أن كلا من المسيحية والإسلام إنما يشيران إلى نفس الآراء فيما يختص بالكون . فقصة التكوين ، والخير والشر ، والخلق كله ، والأوامر والنواهى ، واحدة فى كل من الدينين ، فليس بين الدينين من خلاف إلا فى فكرة الوحدانية فى الإسلام وموقفه من فكرة التثليث ، وفى بعض الوقائع التاريخية التى تتعلق بأنباء النبيين . غير أن هذه الخلافات - التى لا تمس الجوهر - ليس من شأنها أن تعدم التفاهم . أو تقيم خلافا كالذى دفع إلى الحروب الصليبية قديما ، والذى لا يزال حيًّا الآن بين أوربا والمسلمين .

ومن ناحية أخرى فإن أوربا تدعى أنها تطورت وأنها خرجت من الدائرة اللاهوتية ودائرة ما وراء المادة إلى الحالة الوضعية . وهذه الحالة التى تدعى أوربا اصطناعها لا تساعد على جعل الدين أساسا لصلات الاجتماع ، فى حين أن المصالح الاقتصادية استطاعت أن تشعل نيران أكبر حرب عرفتها الإنسانية حتى اليوم .

ومعنى هذا أن تلك الحالة الوضعيه لا تبيح أن يكون الدين – وفقاً لمنطقها ذاته سبباً فى استبعاد التفاهم بين شعبين ، بله بين أوربا والمسلمين .

وقد يقول أحد الأوربيين : حقًّا إن الدين ليس فى ذاته سببا فى عدم

التفاهم هذا . ولكن هذا لا يمنع أن يكون تعصب المسلمين هو السبب فى تلك الحالة التى يتبادل فيها الأوربيون والمسلمون العداء . وهذا الكلام ليس أكثر ابتعاداً عن الصواب مما قدمنا . فلست أتردد فى أن أقول إنه إذ كان هناك تعصب فعلاً فإن هذا التعصب ليس من بضاعة المسلمين . ولست ألقى هذا القول جزافاً فإن الحقائق كلها تؤيد ما أذهب إليه . فلما جاء « بونابرت » إلى مصر فى سنة ١٧٩٨ ، لجأ إلى العلماء لكى يمدوه بالمساعدة فى إدارة البلاد . وإذا كانت غزوة « بونابرت » لم تنجح فى مصر بعد رحيله عنها ، فذلك لأن القائمين عليها إذ ذاك أغفلوا الشعور الوطنى متأثرين بالتعصب الدينى . ولو قد كان التعصب لدى المصريين على هذه الصورة التى يتخيلها الأوربيون لكانت تكفى تصريحات « نابليون » و« كليبر » و« مينو » . وقد كان العلماء الدينيون فى مصر معهم ، كانت تكفى هذه التصريحات لكسب شعور البلد ، ولكنهم فشلوا لأن النزعة الوطنية كانت أقوى من التعصب الدينى عند الأهلين ولذلك لم يستطع لا نابليون ولا من خلفه على الحملة الفرنسية أن يكسبوا المصريين فى صفهم .

وحقيقة أخرى تثبت بوضوح أن التعصب الدينى منعدم تماماً عند المسلمين . تلك أن أغلبية البلاد الإسلامية – إبان الحرب الكبرى – انضمت إلى صف الحلفاء مع أن تركيا وحدها هى التى انضمت إلى ألمانيا ، ولقد فشلت الدعاية القوية التى بذلتها تركيا لإنعاش هذا التعصب الدينى المزعوم لكى تضم البلاد الإسلامية إلى جانبها ، والسبب فى هذا أن البلاد الإسلامية كانت إذ ذاك لا يدفعها إلا الشعور الوطنى ومصالحها المستقبلة .

وحقيقة ثالثة تثبت أن هذا التعصب لا وجود له – هى تركيا الحالية . فقد اتجهت بكل جهودها إلى أوربا لكى تقتبس منها ما يعيد إليها شبابها . ولست

فى مقام الحكم على مدى نجاحها فى هذا السبيل ، ولكن كونها وبقاءها إلى الآن بلداً إسلامياً ، قد أظهرت بمسلكها هذا أنه لا الدين ولا التعصب يمكن أن يكون سبباً لعدم التفاهم بين أوربا والمسلمين .

ولكى نتعرف هذه الأسباب يجدر بنا أن نستعيد جانباً من التاريخ . فبعد وفاة النبى العربى صلى الله عليه وسلم بثلاثين سنة ، أنشأ المسلمون إمبراطورية إسلامية واسعة النطاق . ولم تكن فكرة الاستعمار هى التى تدفع المسلمين للغزو ولكنه كان إيمانهم وتعصبهم لفكرة الوحدانية هو الذى يبعث فيهم روح الغزو لينشروا ما آمنوا به فى كل الأنحاء وليمحوا آثار الوثنية . وبعد ذلك بمائة عام قام المسلمون بغزوات أخرى . وكان نفس هذا الباعث هو الذى يدفع المسلمين ، ولكن بحرارة أقل ، وحماس دينى أقل . فقد كانت فكرة الغزو للغزو فى هذه الآونة ، وفكرة الاستعمار حباً فى الاستعمار ، تساوى تماماً فكرة نشر الدين الجديد .

وبعد ذلك بخمسين سنة قام المسلمون بغزوات أخرى . ولكن فى هذه المرة لم يكن الباعث الدينى هو الذى يحمل المسلمين على الغزو ، بل كانت فكرة الغزو للغزو ، والسبب فى هذا واضح ، فقد كان الإسلام منتصراً كل الانتصار فلم يعد فى حاجة إلى زيادة التوسع بقدر ما كان المسلمون أنفسهم فى حاجة إلى غزو بلاد جديدة تدفعهم فكرة الاستعمار . وهذا التطور من فكرة نشر الدين إيماناً بوجوب نشره ، إلى فكرة الاستعمار للاستعمار يعتبره الكثيرون السبب فى قيام الحروب الصليبية ، ومع ذلك فإن المؤرخين يذهبون إلى القول بأن الحروب الصليبية هى حروب سياسية بقدر ما هى حروب دينية ، وأن الملوك الذين اشتركوا فيها لم يلجأوا إلى الشعور

الدينى عند رعاياهم إلا لاستثارتهم وزيادة حماستهم وزيادة القوة المعنوية بين صفوفهم .

ومرت بعد ذلك قرون حتى انتهى الأمر باستيلاء الأتراك على « إستانبول » فى القرن الخامس عشر . وكان أثر هذه الحملة الآسيوية التى قام بها الأتراك فى البلاد الإسلامية عكس أثرها فى أوربا ، فقد شعرت شعوب أوربا بهزة أيقظتها من سبات القرون الوسطى . وأما فى البلاد الإسلامية فإن الأمر يختلف عن ذلك . فلم يكن بين الشعب الغازى والمسلمين أية علاقة تجمعهم جميعاً إلا علاقة الدين ، لا علاقة الجنس ، ولا علاقة اللغة ، ولا علاقة التفكير . وأما الدين فلم يكن فى نظر الأتراك إلا راية للحرب تتخذ وسيلة لعقاب كل بلد إسلامى لا يخضع للأتراك . وقد ترتب على هذا أن العالم الإسلامى راح فى سبات عميق عند غزو « إستانبول » فى حين أن أوربا بدأت تستيقظ على دوى هذا الغزو وتتجه إلى حياتين ذهنية وروحية جديدتين .

بيد أن هذه النهضة الأوربية لا تشابه تلك النهضة الروحية التى كانت شبه جزيرة العرب مسرحاً لها قبل ثمانية قرون تحت تأثير ما بعث به محمد من الحق .

وليست النهضة الدينية التى أظهرت « لوثر » إذ ذاك إلا خلافاً على تفاصيل الدين لا على جوهره ، ولذلك فإنه ليس يمكن أن تقارن هذه النهضة بما كان من نهضة الإسلام الأولى ، ولذلك كانت ثورة « لوثر » أقل من أن تؤثر فى أوربا كلها ، وإن تكن قد عبدت الطريق لمذهب « ديكارت » وللفلسفة الوضعية بعد ذلك . وبينما كان هذا التطور العقلى يهز أوربا ، كان مبدأ القوميات يتأكد فى الأذهان تمهيداً لأن يكون قاعدة

للحياة السياسية المستقبلة ـ ومن الحق أن نقول إن هذا المبدأ كان دائماً موجوداً فى أوربا ، ولكنه لم يكن بمثل القوة التى ظهر بها بعد عصر النهضة وإحياء العلوم ، وقد اقتضى هذا المبدأ الدول الأوربية أن توسع من نفوذها خارج أوربا تفادياً لقيام حرب بينها فى داخلها . وهكذا بدأت السياسة الاستعمارية تشق طريقها فى أوربا ، تلك السياسة التى تكوّن السبب الحقيقى لعدم التفاهم القائم بين أوربا والإسلام .

ولنشرح هذا قليلا ، ففى غضون القرن السابع عشر نصح الفيلسوف الكبير « ليبنتز » « لويس السادس عشر » أن يحفر قناة تصل ما بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، ولم يكن غرض « ليبنتز » بالطبيعة من هذه النصيحة نشر فلسفته ، بل كان الغرض الذى يرمى إليه هو فتح الطريق أمام التوسع الأوربى فى أفريقيا وآسيا . فقد كان لإسبانيا مستعمراتها فى أمريكا وكانت تدر عليها الذهب ، فكان من الضرورى أن يكون لغيرها من الدول مستعمرات كذلك . وفى نفس الوقت انتهت المفاوضات التى كانت جارية مع تركيا إذ ذاك بمنح المسيحيين الذين يقيمون فى البلاد الإسلامية امتيازات من شأنها أن تسهل لهم الإقامة والاتجار . ولم يكن أحد يفكر عندئذ فى إدخال المدنية إلى الشرق ، ذلك الادعاء العبقرى الجميل الذى لجأت إليه الدول الأوربية لتبرير الاستعمار بعد ذلك بقرنين . هذا وقد منح الباب العالى امتيازات للدول المختلفة للوصول فى النهاية إلى شرط أولى الدول بالمراعاة . وهكذا رسخت التجارة الأوربية فى الشرق توطئة للحضارة الاستعمارية .

وقع بعد ذلك حدث — لست أدرى أكان وقوعه لحسن الحظ أم لسوئه — ساعد على رسوخ هذه الحضارة الاستعمارية ، ذلك هو الصناعة

الكبرى . فلكى تجد الدول الأوربية الأسواق اللازمة لاستهلاك ما تخرجه صناعتهـا الكبيرة من منتجات . أخذت هذه البلاد تتنافس فى غزو المستعمرات . وكانت الفكرة فى هذا إيجاد أسواق جديدة للمنتجات الصناعية والبحث عن حقول جديدة كذلك لإنتاج المواد الخام .

وكانت هذه الروح الاستعمارية فى إبان سطوتها عندما انفجرت الثورة الفرنسية فهزت أوربا من أقصاها إلى أقصاها بما أشاعت من فكر عن الحرية والإخاء والمساواة . وبما جاهدت فى سبيله من توطيد لحق الشعب فى حكم نفسه ، ومن وضع لقواعد الديمقراطية الحالية .

ولكن كيف يمكن أن نوفق بين هاتين الفكرتين المتناقضتين : الحرية ، والاستعمار ؟ من العسير حقًّا أن نفهم هاتين الفكرتين معاً ، ولكن أصحاب الثورة الفرنسية لم يترددوا لحظة أمام هذه الصعوبة فى التوفيق بين الفكرتين ، فلقد قالوا إن المبادئ الجديدة التى جاءت بها الثورة الفرنسية يجب أن تظل محصورة ضمن أوربا فلا تتعداها . وعندما جاء « نابليون » إلى مصر ، لم يكن مدفوعاً إلى اجتياز البحر الأبيض بدافع الحرية . ولكنه كان مدفوعاً بمقاومة وضع اليد الإنجليزية على مصر توطئة لعرقلة النفوذ البريطانى فى الهند . وإذن فقد كانت فكرة الاستعمار ، والاستعمار فقط ، هى التى تحكم نشاط كل من إنجلترا وفرنسا فى مصر . ولذلك فإن هذه المبادئ التى نادت بها الثورة الفرنسية ، مبادئ الحرية والمساواة والإخاء لم تقف قط عقبة فى سبيل تقدم أوربا فى الشرق وفى البلاد الإسلامية .

بيد أنه من الواجب – إلى جانب هذا الدافع الحقيقى – أن تبحث أوربا عن تعلة أخرى تبرر بها الغزو الأوربى للبلاد الشرقية . ولم يكن البحث عن هذه التعلة بالشىء العسير . فإن هذه الشعوب المستعمرة شعوب أولية

ومن الحق على أوربا أن تعلّم هذه الشعوب ، وأن ترفعها إلى مستوى الحضارة الجديدة ، وأن تكونها وتدربها بحيث تستطيع أن تحكم نفسها وفقاً للآراء الديمقراطية . كانت تلك هى التعلة التى استترت أوربا وراءها ، وإنها لتعلة عبقرية حقًّا . فلو قد كانت هذه العواطف صادقة . ولو قد كانت أوربا مخلصة فيما تريد أن توطد قدمها من أجله فى الشرق ، لكان واجباً على هذه الشعوب الشرقية أن تتبادل التهنئة على روح العطف على الآخرين التى تبدو من أوربا إذ ذاك .

ولقد آمنت هذه الشعوب الشرقية بسذاجة تامة بهذا الإخلاص الذى أبدته أوربا ورغبت بكل قواها أن تقتبس الحضارة والثقافة الأوربية . ولكنها سرعان ما تبينت أن لا مواءمة هناك بين هذه الجهود التى تبذلها وبين الأغراض الحقيقية لهؤلاء الأسياد الذين كانوا يحكمون أقدار هذه الشعوب عندئذ . فالحضارة الأوربية إنما تقوم فى الواقع على العلم وعلى رأس المال الصناعى وأرادت الشعوب الشرقية أن تستعيد القرون الثلاثة التى سبقتها بها أوربا فحسبت أن مبادئ الإخاء والمساواة من شأنها أن تملى على أوربا واجب الأخذ بيد هذه الشعوب لكى تحصل على نصيبها من العلوم ومن رأس المال المستغل فى الصناعة ، كما كان الحال مع المسيحيين الأول والمسلمين الأول الذين حاولوا بكل ما يملكون من جهد أن ينشروا ما جاءت به المسيحية والإسلام ولكن شيئاً من هذا لم يحدث . ومنذ أوائل القرن التاسع عشر رغب المصريون اصطناع العلوم والصناعات فى بلادهم ، وساعدتهم الظروف على مواتاة أملهم هذا . ثم تما هذا الأمل بعد الاحتلال البريطانى ، فقد كان من حق المصريين أن يعتقدوا أن إنجلترا سوف تصدّر لمصر – فيما تصدر من مصنوعات منتجاتنا القطنية حضارتها الجديدة كذلك فانتظر المصريون أن يروا إنشاء

الجامعات ، ونشر التعليم العام ، وإنهاض الصناعات الكبيرة . ولكن هذا الأمل ما لبث أن خبا ، فقد اتهمت البلد المغزو بأنه بلد بعيد عن الحضارة ، وأن هذا ناشئ عن الدين الإسلامى .

ولقد جاهر « اللورد كرومر » ممثل بريطانيا العظمى فى مصر – فى تقاريره الرسمية – أن الغرض من التعليم يجب ألا يتعدى إخراج موظفين مطيعين يعملون فى الإدارة . ولم يكن يهم إنجلترا أن تتقدم مصر فى ناحية من النواحى إلا فى إنتاج القطن والمواد الخام التى يحتاج إليها الاستهلاك البريطانى وتحتاج إليها الصناعة البريطانية ، ويجب أن نعترف أن إنجلترا بذلت مجهودات هائلة لتحسين إنتاج القطن وغيره من المواد الخام . غير أن أى طلب ينصب على إنشاء صناعة كيفما كانت يوظف فيها رأس المال المصرى ، كل طلب من هذا الطراز كان يقابل بالرفض البات ، أوبوضع عقبات – لا يمكن التغلب عليها – فى طريقه . وما حدث فى مصر حدث فى غيرها من البلاد المستعمرة . ولم يكن التنافس الاستعمارى المسرف غير الدافع لغليوم الثانى على أن يقول إن مستقبل ألمانيا ليس إلا فى البحر ، ولم يكن إلا الدافع إلى إعلان السلام المسلح ، الذى أملى على أوربا أن تنفق مئات الملايين فى التسليح ، ولم يكن إلا الباعث على نشوب الحرب العظمى فى سنة ١٩١٤ . وسياسة كهذه لا يمكن أن تطمئن إلى غدها ، ولا يمكن أن تضع ثقتها فى شيء ، ولذلك لم يكن لأوربا بطبيعة الحال ثقة فى مستعمراتها ، ولم يكن للبلاد المستعمرة – من باب أولى – ثقة فى نوايا أوربا ، ومن أجل هذا كان عسيراً أن يقوم تفاهم بين أوربا والإسلام .

ولم يكن للشعوب المستعمرة ثقة فى أوربا ، ليس فقط لأن أوربا كانت تعاملها باعتبارها شعوباً غير متحضرة ، ولكن لأنها كانت تطبق فى

مستعمراتها الآراء التى حكمت عليها – داخل بلادها الأوربية – بأنها بالغة الضرر. فقد قررت فرنسا مثلاً فصل الكنيسة عن الدولة داخل بلادها ، وقررت كذلك تجريد رجال الكنيسة من أموالهم ، وأعلنت بعد ذلك الحالة المدنية . ومع كل هذا فإن الحكومة الفرنسية المدنية تعطى أموالاً طائلة للبعثات الدينية التى تدعى أنها تنشر المسيحية .

ومن الحق علينا أن نعترف بأن هذه البعثات الدينية – سواء منها الفرنسية والأمريكية والإنجليزية وغيرها – قد قامت بأعمال إنسانية فى الشرق فقد أسست هذه البعثات معاهد علمية ، ومستشفيات ومؤسسات خيرية . ولكن البعثات المدنية قامت كذلك بأعمال كثيرة من هذا الطراز . والواقع أننا لا نستطيع أن نفسر هذا التناقض الظاهر فى مسلك الحكومات الأوربية ، إذ أن هذه الحكومات تطارد البعثات الدينية من بلادها لكى تحميها فى الخارج ، فإن لم يكن الباعث هذه الروح السياسية الاستعمارية لما عاملت البلاد المستعمرة غيرها من البلاد وفق المبادئ التى قامت الثورات ضدها عند الأمم الأوربية .

ومن العوامل التى ساعدت على عدم قيام تفاهم بين أوربا والإسلام هجرة العناصر غير المرغوب فيها فى البلاد الأوربية إلى البلاد المستعمرة بحثاً عن الثروة دون إقامة أدنى وزن للوسائل والأساليب التى يستخدمونها فيما هم بسبيله من غرض . ويكفى أن يقرأ الإنسان كتاب « إدمون أبو» القديم المسمى « الفلاح » لكى يدرك الإنسان إلى أى درك تنحط هذه الوسائل والأساليب فى أغلب الأحيان ، ولكى يعرف أن الربا قد يكون أقرب هذه الوسائل إلى الخير والفضيلة .

وعند ما خاب أمل الشعوب الإسلامية – كما وضحنا ذلك – فى

نيات أوربا ، أحست هذه الشعوب ، قبل الحرب الكبرى بعدة سنين ، أن من واجبها ألا تعتمد إلا على مجهودها الخاص ، ولم يكن أمل هذه الشعوب الإسلامية كبيراً فى النجاح ؟ ولكن يجب أن نعترف إلى جانب هذه الحقيقة التى قررناها ، أن ضعف الأمل فى النجاح لم يقف عائقاً دون هذه الشعوب وما تبتغى من الأغراض ، بل لم يمنعها هذا من الاستزادة من النشاط مع الإيمان دائماً بالعدالة الإلهية العالية .

ولشد ما كان دهش هذه الشعوب عندما اندلعت أول شرارة للحرب العظمى فى الثانى من أغسطس سنة ١٩١٤ : ففى غضون المدة الطويلة التى استمرت فيها الحرب كانت دعاية الحلفاء التى تنادى بأنها تحارب الروح العسكرية الألمانية لكى تنصر الحرية ، والوعود التى كان يبذلها هؤلاء للشعوب المستعمرة ، والمبادئ التى جاءت بها الهدنة ، وخاصة الاعتراف بحق الشعوب فى تقرير مصيرها — كل هذه أمور كان من شأنها أن تفتح أمام الشعوب المسلمة آفاقاً جديدة وبالأخص أمام الشعوب التى انتصرت لقضية الحلفاء .

وإذا انتهت الحرب ، ووقعت المعاهدات ، أخذت آمال هذه الشعوب تذوى ! ! أكانت إذن خدعة من أوربا عندما قام من ينادون بحق تقرير المصير ؟ أكان إذن خدعة ذلك النضال ضد الروح العسكرية الألمانية ؟ وهل بقيت أوربا ما بعد الحرب إزاء الشعوب الإسلامية هى أوربا ما قبل الحرب ؟ لقد كانت خيبة الأمل فى ذلك كله أكبر من الآمال التى عقدتها هذه الشعوب على أوربا .

بيد أن شيئاً لا يمنع من قيام تفاهم متبادل بين أوربا والإسلام إذا

وجد الرجال ذوو العزائم من الناحيتين ، الذين يأخذون على عاتقهم القيام بهذا العبء الضخم .

ولكن أين يوجد هؤلاء الرجال ؟ أين الكتاب والفلاسفة ورجال العلوم ؟ أعتقد أن من الواجب علىّ أن أقول - دون أن أخدش جميع من ذكرت - إن هؤلاء كلهم يتحملون نصيبا كبيرا من المسئولية عن قيام عدم التفاهم الحالى بين أوربا والإسلام ، إذ أن الأغلبية منهم تنسى أن لهم رسالة إنسانية ، رسالة لا تعرف حدود الدول السياسية . فهؤلاء الكتاب والفلاسفة وأصحاب العلوم يضعون نبوغهم وعبقريتهم فى خدمة سياسة بلادهم القومية ؛ وليس من ينكر أن هذا واجب عليهم إذا تعرضت أوطانهم . للأخطار ولكن هذه الأخطار قليلة الحدوث فى الغالب ، ومن واجب رجال السياسة أن يسيّروا أمور الوطن وقت السلم تسييراً يكون من نتائجه الابتعاد عما يوقد نيران الحرب ، ففى هذه الأوقات ، من الحق على أصحاب العلوم الإنسانية من الكتاب وغيرهم من رجال الفكر ، أن يسخروا جهودهم لخدمة قضية الحرية والتعاون بين الشعوب .

وحرية الشعوب التى نعنيها شبيهة بحرية الأفراد . يحترمها الجميع ويعترف بها الجميع ، دون نظر لثرواتهم أو لقواهم المادية ، وتعاون الشعوب الذى نعنيه تعاون قائم على القاعدة السابقة بين الأمم . وحسبنا بهذه وسيلة للتفاهم المرموق .

ولكن هل يمكن أن ينجح الإنسان فى دفع رجال الفكر فى العالم إلى طريق كهذا الطريق ؟ تلك هى المشكلة ، ذلك أن المصالح المادية - لسوء الحظ - من القوة بحيث لا تجعل محلا للأمل العريض . فهذه المصالح حتى الآن هى التى تدير النشاط فى العالم ، بل إنها تدير حياته

الروحية والخلقية . غير أننا لا يجوز أن نيأس مع ذلك . فإن كثيرين يعتقدون أننا الآن فى سبيل بعث أكبر من البعث الذى رأته أوربا فى القرن السادس عشر فى عصر النهضة وإحياء العلوم ، وأن هذا البعث لن يقتصر على أوربا ، بل إنه سوف يشمل دول العالم جميعاً . وسيكون هذا البعث نتيجة طبيعية لهذه الحرب الاقتصادية المستعرة بين الشعوب ليس فى أوربا فحسب ، ولكن فى آسيا وأمريكا كذلك . فلنؤمل إذن أن يقترب موعد حرية الشعوب والتعاون بينها لسعادة الجميع ورفاهة الجميع .

ويومذاك ، لن يوجد عدم التفاهم بين أوربا والإسلام ، بل سيوجد تفاهم عالمى للوصول إلى الحقائق الخلقية العالية ولتوطيد السلام بإقامة الحياة الخلقية على البصيرة الروحية والحياة الاقتصادية على الحياة الخلقية .

٣ – وجهة الإسلام

« يجب علينا فى الختام أن نتساءل عما يمكن فى مستقبل نظام العالم أن يكون عليه وضع الجماعة الإسلامية بصفة عامة ؛ وأن تكون عليه صلاتها بالجماعات الإنسانية الأخرى بصفة خاصة . لقد أوضح الأستاذ « برج » بحق أن إلقاء الشعوب الإسلامية بوزنها فى كفة الغرب أو فى كفة الشرق يتعلق تمام التعلق بموقف أوربا من العالم الإسلامى ومن الشرق بوجه عام . والإسلام لا يمكن فى نفس الوقت أن ينكر أسسه الذاتية وأن يعيش . وقد رأينا أن الإسلام فى أسسه يتصل بالجماعة الغربية بمعناها الواسع ، بل هو جزء منها . فهو مكمل الحضارة الأوربية ومعدلها ، استقى من الينابيع

التي استقت منها هذه الحضارة وتنفس الهواء الذى تنفست . وما هو حادث اليوم بين أوربا والإسلام إنما هو فى أوسع صور التاريخ مدى استعادة حضارة الغرب كمالها الذى تصدع تصدعاً مصطنعاً بالنهضة (الرينسانس) ، والذى يستعيد الآن وحدته بقوة ساحقة .

« والمشتغل بدراسة التاريخ ، وإن كان يدرك مزالق الأقيسة لا يسعه إلا أن يذكر لحظتين قديمتين (وإن لم تكونا أقدم مثيلاتهما) من لحظات التفاعل الإنسانى بين نصفى العالم الغربى ، فقد كان جلال الإمبراطورية الرومانية وعظمتها أنها وحدت بين القسمين تحت سلطانها ، وحدة نشأت منهـا القوى الروحية التى سيطـرت على مجرى التاريخ الغربى . وفى منتصف الطريق بين ذلك العصر وعصر النهضة الأوربية وثب الإسلام وثبته الفكرية الأولى عندما تشرب تراث الإغريق وأخرج منها زهوراً جديدة أمدت النهضة الأوربية ببذورها .

« ولا يمكن أن تقف الحركة عند هذا الحد ، بل هى ستمر تحت أعيننا وفى ميدان أوسع وأرحب ، وإن كان التباين بين العالم الإسلامى باعتباره كلا وبين التقدم الصناعى المدهش الذى بلغته أوربا الغربية قد يحول أحياناً بيننا وبين مشاهدة هذا الاستمرار . ولو أن الأمر كان بالعكس لما تغيرت النتيجة ولكان لزاماً علينا أن نلجأ للمجتمع الإسلامى ليعيد إلى المدنية الغربية توازنها الذى أفقدها إياه تقدم الغرب دون الشرق . وربما يتضح على مرور الزمن أن معقل الإمبراطورية العثمانية كان فى دفاعها عن الإسلام ، وأنها بجعله فى معزل منعته من الاشتراك فى تقدم الوطنية الأوربية المبالغ فيه وجعلته يأخذ الصبغة البلقانية – وهذا هو المصير الذى وقعت فيه تركيا نفسها والذى ورثته عن ماضيها السياسى البيزنطى لا عن

ماضيها الإسلامى . ومهما تكن الظروف فإن الإسلام ليقف جنباً إلى جنب مع أوربا على خلاف المجتمعات الشرقية الأخرى فى الهند والشرق الأقصى . وفكرة إنشاء عصبة أمم شرقية تشمل البلاد الإسلامية والهند والصين واليابان فكرة خيالية أنتجها استياء الشرق من سيطرة أوربا الاقتصادية المؤقتة . ولن يستطيع المجتمع الإسلامى أن يستغنى عن التعاون الأوربى لبلوغه الغاية التى يصبو إليها من التقدم لثقافته وحياته الاقتصادية ، كما أن المجتمع الأوربى ليس يستطيع الوصول إلى الغاية القصوى من التقدم فى ثقافته وحياته الروحية بدون الاستعانة بالقوى الكامنة فى المجتمع الإسلامى . ثم إن المجتمعين لن يتمكنا من استعادة كامل القوات الكامنة فيهما واستغلالها قبل أن يستعيدا ذلك التفاعل الذى كان قائماً بينهما فى ظل الإمبراطورية الرومانية .

« ولا يزال الإسلام عامل التوازن بين النقيضين فى العالم العربى . فهو يقف فى وجه فوضى الوطنية الأوربية كما يقف حائلاً دون زحف الشيوعية الروسية . ذلك بأنه لم يخضع بعد لضغط الجانب الاقتصادى الذى يعد من خصائص الحياة فى أوربا وفى روسيا على السواء فى حركتنا الحاضرة . وقد لخص الأستاذ مسينيون أدب الإسلام الاجتماعى تلخيصاً يثير الإعجاب فى قوله : « يمتاز الإسلام بأنه يمثل فكرة مساواة صحيحة بمساهمة كل فرد من أفراد الشعب بالعشر فى موارد الجماعة . ومبادئ الإسلام تنبذ التبادل غير المقيد كما تناوئ بالعداء الأموال المصرفية (الربا) والقروض الحكومية والضرائب غير المباشرة على ضروريات الحياة ، فى حين أنه شديد التمسك بحقوق الوالد والزوج والملكية ورؤوس الأموال التجارية ، فهو بذلك يقف موقفاً وسطاً بين البورجوازية الرأسمالية والشيوعية البلشفية » .

« والإسلام مطالب كذلك بخدمة أخرى يسديها للإنسانية . فهو إلى الشرق الحقيقي أقرب من أوربا إليه . وله ماض بديع من تعاون الشعوب وتفاهمها . وليس من مجتمع آخر له مثل ما للإسلام من ماض كله النجاح فى جمع كلمة مثل هذه الشعوب الكثيرة المتباينة على بساط المساواة فى الحقوق والواجبات . ولقد برهنت الطوائف الإسلامية الكبرى فى أفريقيا والهند والهند الشرقية ، والجماعات الصغيرة منهم فى الصين واليابان . على أن الإسلام يستطيع أن يوفق بين العناصر التى لا سبيل إلى التوفيق بينها . وإذا ما أريد إحلال التعاون محل الخلاف بين المجتمعات فى الشرق والغرب فإن وساطة الإسلام ضرورية لا غنى عنها . فهو وحده الكفيل بحل المشكلة التى تواجه أوربا فى علاقاتها مع الشرق . فإذا اتحدا عظم الأمل فى أن تكون النتيجة سلاماً . أما إن رفضت أوربا معاونة الإسلام وألقت بنفسها فى أحضان خصومه فإن العاقبة لا يمكن أن تكون إلا نكبة لهما معاً » .

* * *

ما أتم القارئ الآن تلاوته هو ختام كتاب « وجهة الإسلام » ، الذى تعاون فى وضعه الأساتذة « جب » بجامعة لندن . و« ماسنيون » بجامعة باريس ، « وكامبفماير » بجامعة برلين ، و« برج » بجامعة ليدن واللفتنانت كولونل « فرار » . وهؤلاء جميعاً هم كبار المستشرقين فى ممالك أوربا المختلفة . وقد تولى الأستاذ « جب » نشر هذا الكتاب ووضع مقدمته وخاتمته التى حاول فيها أن يصور اتجاه الشعوب الإسلامية فى هذا العصر الحاضر . أما الأستاذ ماسنيون فقد كتب عن شعوب أفريقيا الشمالية فيما عدا مصر والشرق العربى وتركيا وفارس وأفغانستان ، وكانت الهند الإسلامية

موضع دراسة اللفتنانت كولونيل فرار ، كما كانت إندونيسيا موضع بحث الأستاذ « برج » . وقد تعاون هؤلاء الأساتذة جميعاً فى دراسة العوامل والاتجاهات التى تبدو وتعمل فى الممالك الإسلامية وأرادوا على ضوء دراستهم ومباحثهم أن يصوروا موقف الإسلام من أوربا وموقف أوربا من الإسلام وما يجب أن تكون عليه صلات الفريقين فى المستقبل بعد أن وصفوا ما كانت عليه فى الماضى .

ولعلك شعرت من قراءة خاتمة الكتاب ومن هذا العرض السريع لمشتملاته أنه كتاب سياسى يقوم على أسس من البحث العلمى ، وأنت لذلك يجب إذا قرأته أن تقرأه بما يجب من حذر السائر فى مسالك السياسة ، ومن سكينة المطمئن لنزاهة مباحث العلم ؛ ويجب عليك كذلك أن تعمل للاستفادة منه كمسلم وكشرق فى مثل الغاية التى وضع لها .

* * *

يبلغ عدد المسلمين على حساب الإحصاءات الأخيرة من مائتين وأربعين إلى مائتين وخمسين مليوناً . منهم مائة وثمانون مليوناً فى آسيا ، وخمسون مليوناً فى أفريقيا ، والباقون موزعون بين أوربا وأمريكا . وهؤلاء المائتان والخمسون مليوناً موزعون توزيعاً جغرافيًّا عجيباً يجعلهم جميعاً متصلين أو فى حكم المتصلين بعضهم ببعض . فهم يتتابعون فى سلسلة متصلة من غرب أفريقيا حيث يتاخمون الأطلانطيق إلى السودان ومصر ويمتدون محاذين البحر الأبيض المتوسط إلى غرب آسيا وجنوب أوربا مما

يبلغ عدد المسلمين فى العالم الآن حوالى ٧٠٠ مليون وذلك حسب آخر الإحصائيات .

حول البحر الأسود ثم تستمر سلسلتهم مطردة الاتصال شمالاً فى قلب سيبريا وشرقاً فى منغوليا ، كما أنها تتخطى الدجلة والفرات فى العراق إلى العجم وإلى أفغانستان وإلى الهند حيث تنقطع السلسلة هوناً ما لتتصل بعد ذلك فى جزر الملايا وأرخبيل الهند الشرقية حتى تنتهى إلى الفيلبين . وهى تنزل جنوباً من السودان إلى شاطئ أفريقيا الشرقى حتى مدغشقر . يضاف إلى هذه السلسلة المتصلة بعض شعوب إسلامية منعزلة خلال الصين أو على حدودها وفى جنوب أفريقيا وفى بولونيا وفى أنحاء مختلفة من أوربا وأمريكا . يقول « جب » : « إذا أنت نظرت إلى العالم الإسلامى على الخريطة رأيته أشبه شىء بهلالين عظيمين تنبعث قرونهما من مركز مشترك فى آسيا الغربية . فالهلال الشمالى يتكون من شريط يزيد عرضه على ألف ميل ويكاد يحيط بأوربا من أقصاها إلى أقصاها ويعزلها جغرافياً عن بلاد آسيا الجنوبية والشرقية الكثيرة السكان . أما ذراع الهلال الشمالى الرفيعة فتضم أثناءها المحيط الهندى » .

هذا العالم الإسلامى الفسيح فى ترامى أطرافه ، الجامع لذلك بين شعوب وأجناس وبيئات مختلفة التاريخ كاختلافنا فى ظروف العيش ، له مع ذلك وحدة فى الحضارة ووحدة فى الثقافة . ومرجع ذلك إلى أسباب عدة : منها أن هذا العالم الإسلامى لم يتكون تدريجياً على الزمن ، ولكنه وجد وامتد فى فترات قصيرة متقاربة هيأت لهذه الوحدة النفسية والعقلية ، فيما بين بعث النبى عليه السلام فى سنة ٦٣٢ ميلادية وسنة ٧٥٠ أى فى فترة لا تزيد على مائة وعشرين سنة – امتد سلطان الإسلام من إسبانيا ومراكش إلى أواسط آسيا وظل مستقراً هنالك قرنين ونصف قرن من الزمان أمكن فيهما تركيز حضارة وثقافة مستمدتين من أصل الإسلام والبيئة التى

نشأ منذ أول أمره فيها . وفى المائة السنة الواقعة ما بين سنة ألف وسنة ألف ومائة امتد سلطان الإسلام فى ميادين أربعة : فى غرب أفريقيا ، وفى آسيا الصغرى ، وفى آسيا الوسطى ، وفى شمال الهند . وبعد قرنين آخرين — بين سنة ١٣٠٠ وسنة ١٤٠٠ نفذ سلطانه إلى البلقان وإلى روسيا وسيبريا وإلى بقية الهند وإلى إندونيسيا . ومن يومئذ وقف سلطان الإسلام عن الامتداد إلا فى حدود ضيقة أكثرها فى أفريقيا . وفى كل واحدة من هذه القفزات التى قفزها نفوذ الإسلام وسلطانه كانت الحضارة الإسلامية التى نمت وترعرعت منذ القرنين الأولين من عصوره الزاهية تزداد نماء وقوة بما تتصل به من حضارات جديدة تؤثر الحضارة الإسلامية فيها وتخضعها لسلطانها وتتأثر فى نفس الوقت وتتغذى بما قد يكون من صالح فيها . وذلك بأن الإسلام لم يكن منذ اللحظة الأولى ديناً وعبادة وكفى ، ولكنه سرعان ما كان ثقافة وحضارة تكونت على أسسه وأصوله التى توطدت فى حياة « محمد » بخير ما توطدت لحضارة ولثقافة أسسها وأصولها الأولى . لذلك كان طبيعياً أن تتغذى الحضارة الإسلامية وأن تتغذى الثقافة الإسلامية من كل ما غزوا من ميادين العلم والبحث ، على أنه كان ككل قوى الحياة السليمة دائم النمو دائم النشاط لا يستقر ولا يهدأ بل يريد دائماً جديداً يهضمه ويتمثله ليلفظ قديماً لم يبق صالحاً لدرك الغاية التى ترمى الأصول والأسس الأولى لإدراكها ، وفى مقدمة ما ترمى هذه الأصول والأسس له تحرير الفكر من قيود المادة وتصوير العالم فكرة لا آلة والعمل للاستزادة من معرفة العالم لزيادة الاتصال به وحسن تمثل فكرته . والغاية التى يرمى الإسلام لها درك كمال النفس فى حسن اتصالها بالله ، وإسلامها له إسلاماً صحيحاً . وهذا وذاك لا يتحققان إلا بتحقق المعرفة فى أسمى ما تستطيع

عقولنا وعواطفنا وأفئدتنا وقلوبنا أن تصل إليه . فى هذه الحدود المترامية الأطراف كانت الحضارة وكانت الثقافة الإسلامية تعملان . وبروح من الإخاء الصحيح الذى يقرر أن إيمان المرء لا يكمل حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه كانت الجهود تتضافر لإقامة الحضارة والثقافة . وبحكم اجتماع المسلمين فى مكة أيام الحج كانت نتائج هذه الجهود تنتشر وتقوى وتنتقل إلى المسلمين جميعاً فى مختلف أقطار الأرض . أضف إلى هذا أن الإسلام سكّن حدة الفوارق الجنسية حتى لقد كاد يهدم الحدود فيما بين الدول المنتسبة له ، كما أن أخوة المسلمين يسرت الهجرة لهم جميعاً . فلم يكن عجباً أن نرى المعرّى ينتقل من الشام إلى بغداد ويتخذها زمناً ما سكنا ، ولا كان عجباً أن يقيم من أهل الحجاز بمصر ومن أهل اليمن بالشام ومن أهل مصر بالمغرب ، وأن تنتقل ثمرات الفكر والبحث العلمى فى أنحاء العالم الإسلامى على أيدى هؤلاء المهاجرين .

ولهذه الظروف ازدهرت الحضارة وتأصلت جذور الثقافة من عصور الإسلام الأولى . على أن نظام الحكم والأصل الذى يقوم فى الإسلام عليه مالبث أن تغير وإن اندست إليه فكرة تخالف الفكرة التى عرفت منذ صدر الإسلام ، فكرة كانت شائعة إلى يومئذ فى فارس وفى بيزنطة وفى البلاد التى تغلب المسلمون عليها ، فكرة سرعان ما طورت كيان النظام الاجتماعى من الحياة الحرة إلى حياة مقيدة وما مهدت لدخول دول الإسلام فى تيار تفكير العصور الوسطى وما يسرت للحاكم أن يزج فى نطاق الدين بكل شىء ، وبكل ما ليس من الدين فى شىء ، وأن يقيد بقيود الدين حركات الناس وسكناتهم ومأكلهم ومشربهم وطريقة مشيتهم وسلامهم وصور حديثهم وسكوتهم . يقول « جب » : « وبالرغم من أن الدعوة

الإسلامية نفسها لم تنتشر بالسيف فقد كان تحت جناح الحكم الإسلامى أن وجد المبشرون بها خير الظروف فى نشاطهم للدعوة » ، ولئن كان هذا النشاط قد وجد فى أوربا المسيحية خصومة ولدداً منذ الساعة الأولى ومنذ أيام النبى عليه السلام فإن تسلط المسلمين وسرعة انتشارهم فى أقطار الأرض حكاماً قد استهوى النفوس إلى دعوة الحق التى بعثت إلى أرواحهم بكل هذه القوة . لكن هذا التطور الذى أشرنا إليه كان مقدمة الضعف والركود الذى استولى على الإسلام زمناً ، والذى امتد إلى زمننا هذا فيما خلا فترات يقظة كانت تعود بالإسلام إلى كل مجده ثم ما تلبث أن تنطوى تحت عبء هذا التطور والفكرة التى أدت إليه . ولست أجد خيراً فى تصوير هذا التطور والفكرة التى قام على أساسها من أن أنقل عبارة الأستاذ « عبد الحميد العبادى » حين أرخ « لهارون الرشيد » فى أحد ملاحق « السياسة » إذ قال : (ما النظام الذى كانت تخضع له الدولة العباسية ؟ هو نظام الخلافة بالطبع . ولكن الخلافة على عهد العباسيين كانت غيرها على عهد الخلفاء الأوائل . فخلافة العباسيين مختلفة عن خلافة أبى بكر وعمر كما يختلف الحكم الاستبدادى عن الديمقراطية الصحيحة . ذلك بأن العباسيين أخذوا عن الفرس نظرية الحق الإلهى فى الحكم . ولكى يعطوا هذه النظرية الصبغة الإسلامية زعموا أن الخلافة ميراث عن النبى صلى الله عليه وسلم وأجروا عليها أحكام الميراث ، وبذلك يكونون هم أحق الناس بها ، وفى هذا المعنى يقول شاعرهم :

أنّى يكـون وليس ذاك بكائن لبنى البنات وراثة الأعمام

ويقول « السفاح » فى خطبته التى خطبها الناس عند مبايعتهم له بالكوفة : « واعلموا أن هذا الأمر فينا ، ليس بخارج منا حتى نسلمه إلى

عيسى بن مريم عليه السلام » . ويقول « المنصور » من خطبة له : « أيها الناس ! إنما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتأييده ، وحارسه على ماله ؛ أعمل فيه بمشيئته وإرادته وأعطيه بإذنه . فقد جعلنى الله عليه قفلاً ، إن شاء أن يفتحنى فتحنى لإعطائكم وقسم أرزاقكم ؛ وإن شاء أن يقفلنى عنها أقفلنى . . . » ولكى ندرك مدى التغيير الذى أصاب الخلافة فى عهد العباسيين نكتفى بأن نورد بعض خطبة « أبى بكر » التى خطبها على أثر بيعته فقد قال : أيها الناس ، قد وليت أمركم . ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . . . أطيعونى ما أطعت الله ورسوله فيكم ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم . . . » كما نورد الشعر الذى خاطب به « الحطيئة » « عمر بن الخطاب » بعد أن بويع قال :

أنت الإمام الذى من بعد صاحبه ألقى إليك مقاليد النهى البشر
لم يؤثروك بها إذ قدموك لها لكن لأنفسهم كانت بك الأثر

وكما ورث « الرشيد » الحكم بموجب النظرية المذكورة ، فقد ورث بالإضافة إليها ما يصح أن يعتبر من الوجهة الفعلية جزءاً من النظام السياسى للدولة ؛ ذلك نظام البلاط ، وهو شىء أخذوه عن الفرس كذلك ، فقد كان الأكاسرة يعيشون محتجبين عن الرعية فى بلاطهم ، تحف بهم حاشيتهم وحجابهم وحراسهم وغلمانهم ، ونفوذ نسائهم وجواريهم — إن صح هذا التعبير . وكثيراً ما كان بلاط فارس بهذا الخليط مبعث الدسائس والفتن السياسية كما يرى من تاريخ متأخرى الساسانيين ، كذلك كان البلاط على عهد الدولة العباسية . وقد ظهر أثره السيئ فى الشئون العامة لأول ظهوره ؛ فقد ذهب « المهدى » و « الهادى » ضحية مكايد دبرت لهم فى نفس بلاطهم .

« حكومة استبدادية تستند إلى نظرية سياسية جامدة ؛ وبلاط هو بحكم تكوينه ذوجو صالح للدس والمكايدة ، ذلك هو النظام السياسى الذى أصبح الرشيد يحكم بمقتضاه وفى حدوده ، وهو نظام من شأنه أنه إذا كان الذى يحكم فى ظله قوياً كان من أقوى أسباب الاستبداد والطغيان . وإذا كان ضعيفاً كان من أقوى بواعث الفتنة والاضطراب .

« وهذا بالدقة ما يثبته تاريخ الدولة العباسية . فالمتقدمون من خلفائها الذين يوصفون بالقوة والكفاية كالمنصور والمهدى والرشيد والمتوكل كانوا جبابرة طغاة ، وأما المتأخرون الذين يوسمون بالضعف فقد كانوا ألاعيب فى أيدى أهل البلاط ونساء القصر ؛ يصرفونهم كيف شاءوا وشاءت أهواؤهم » .

لكن هذا الذىّ حدث منذ العباسيين مما صور الأستاذ العبادى لم يكن جديراً أن يظهر أثره فى سنين قليلة ، ولم يكن من شأنه بطبيعة ظروف العالم العامة يومئذ أن تضعف الدول الإسلامية إزاء الدول غير الإسلامية . صحيح أن الإسلام وقف فى مركز جغرافى وسط بين أوربا المسيحية إلى غربه وبين الأديان الهندية والصينية إلى شرقه . لكن نظريات الحكم ونظامه لم تكن فى أوربا خيراً مما كانت فى الدول الإسلامية ، ولم تكن كذلك فى دول الشرق الأقصى . على أن ظروف هذا الانحلال الفكرى فى الدول الإسلامية مهدت للغزو المغولى والتترى . ولما كان هؤلاء وأولئك قد أسلموا كان قيامهم وغزوهم الدول الإسلامية الأخرى من عوامل يقظة الإسلام وانكماش دول أوربا الغربية ودول الهند والصين أمامه . ثم إن هذا التطور الذى أشرنا إليه والذى نقلنا وصفه عن الأستاذ العبادى كان لا بد أن يؤتى من الثمرات ما آتى وأن يمهد للعصر الذى مهد له بعد يقظة أوربا

وتسلم حضارة الصناعة زمام القيادة العالمية لتزج بالعالم كله فيما زجت به فيه من مادية توشك اليوم أن تنهار وتتداعى .

ظلت الدول الإسلامية محتفظة بمركز القيادة برغم هذا التطور السيئ لأن أوربا كانت خاضعة لتفكير مثله أو شرمنه ، ولأن مركز التجارة والرخاء الاقتصادى كان بين المسلمين . على أن نهضة أوربا فى القرن التاسع الهجرى وما وجه إليه تحرير الفكر أنظار هؤلاء الغربيين إلى الناحية العملية كان جديراً أن يقيم حضارة الصناعة وأن يزعزع هذا المركز الممتاز الذى كان للمسلمين . صحيح أن أوربا لم تجرؤ على التفكير فى غزو الإسلام قبل القرن الثامن عشر المسيحى ، وصحيح أن المسلمين ظلوا محتفظين بذاتيتهم وباستقلالهم وظلت الخلافة الإسلامية التى رفع بنو عثمان علمها شبحاً أمام التقدم الاستعمارى الأوربى ، إلا أن المسلمين شعروا بأنهم وقد كانوا إلى عصر قريب غزاة العالم تغزوهم صناعات وأفكار جديدة ويغزوهم من نواحى الغرب رجال يجيئون أول أمرهم أفاقين ثم ما يلبثون أن يصبحوا أصحاب الحول والطول وأصحاب النفوذ والمال . وماذا عسى المسلمين أن يصنعوا ؟ بدءوا أول أمرهم يحدقون ذاهلين بهذا الذى وقع ويسائلون أنفسهم عن سببه فلا يحيرون جواباً . وأدى ذلك بهم إلى الانكماش وإلى التوجه بقلوبهم إلى ناحية دولة الخلافة يأملون فى قوتها الروحية والزمنية من هذه الكارثة مخرجاً . ولم يتقدم من بين صفوفهم أولئك الأفذاذ الأقوياء الذين يهزون العالم ويبعثون إلى النفوس روح الإقدام وروح الاستخفاف بالحياة والذين يصيحون بأهلهم قائلين : « فَتَمَنَّوا المَوْتَ إن كُنْتُمْ صادقين » بل استكان الكل وظل الأمر بيد الخليفة وبلاطه وبين حكم الخلافة المستبد وشهوات أهل البلاط المادية الوضيعة ودسائسهم المنحطة القذرة لم تكن

ذلك بأن الفكرة التى أدت إلى التطور الذى قدمنا كانت قد آتت فى هذا الظرف كل ثمراتها . يقول « جب » : « ظل علماء الإسلام يعلمون الناس مدى عشرة قرون تباعاً – لمناسبة ولغير مناسبة – وجوب الإذعان للسلطة سواء أكانت هذه السلطة شرعية أم مغتصبة ؛ وقوى المتمسكون هذا الدرس فى النفوس بصورة لا تحتمل الريب . وتبدى الهمود السياسى وكأنه متأصل فى الشعوب الإسلامية حتى عزاه الغربيون الذين لاحظوا تحمل المسلمين للضغط وسوء الحكم إلى العقيدة القدرية فى الإسلام ، لكن هذه لم تكن قط أكثر من نصف حقيقة . فالقدرية بهذا المعنى المطلق لم تكن سبباً بمقدار ما كانت نتيجة . والاستكانة السياسية التى بدا بها الشعب الإسلامى إزاء الغير ترجع فى معظمها إلى أسباب مادية ؛ البؤس الاقتصادى من أكثرها ظهوراً » . ولسنا بحاجة إلى القول بأن الأستاذ « جب » لا ينصف الإسلام حين يعزو إليه أى حظ من هذه القدرية التى أدت بشعوبه إلى الاستكانة . فالإسلام لا يدعو للإذعان إلى أحد إلا لله . والقرآن الكريم أعظم الكتب السماوية دعوة لطاعة الوالدين ورضاهما ، يقول فى صدر الكلام عنهما : « وإنْ جاهداك على أنْ تُشرك بى ما ليس لك به عِلْمٌ فلا تطعْهما وصاحِبْهما فى الدُّنيا معْروفاً » . فإذا كان ذلك شأن الوالدين فما بالك بمن يجاهدك على أن تخضع لما ليس لك به علم ، وأن تصل من الخضوع له حتى تجعله فى السلطان لله شريكاً . إن أقل ما يأمر به الإسلام فى هذا الظرف الثورة عليه وتحطيمه وتحطيم تعاليمه . فأما ما جاء بعد ذلك من خضوع واستسلام فإنما كان أثرا لهذا الانقلاب النفسى فى تصوير أساس الحكم فى الإسلام .

لم يجرؤ أحد على أن يجهر بهذه الحقيقة خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ومن جهر بها كان معناه التعرض للتشريد والنفى والإلقاء

فى أعماق الدردنيل جزاؤه . لكن المدنية الأوربية كانت دائبة لغزو الشرق ولغزو الأمم الإسلامية بتجارتها وصناعتها وبثقافتها كذلك . وإذا استمر الأمر على هذا فقل على الخلافة الإسلامية وعلى العالم الإسلامى السلام . ورفع كتاب العرب وساسته عقائرهم يصيحون أن الإسلام كدين هو سبب انحطاط الشعوب الإسلامية . وأن هذه الشعوب لا مفر منقرضة ، وأن دولة الخلافة قد صار أمرها إلى أن أصبحت الرجل المريض لا مفر له من الموت الذى هو آتيه لا محالة . وقوى نشاط المبشرين للمسيحية فى العالم الإسلامى وقوى إلى جانبه نشاط الدعاة إلى الحضارة الغربية . فماذا عسى يصنع ساسة دولة الخلافة . لا شىء فى الواقع . لكن المفكرين والكتاب من المسلمين بدءوا نشاطهم فى ناحيتين : أولاهما سياسية هى الدعوة إلى الجامعة الإسلامية . والثانية دينية تجديدية هى الدعوة التى قام بها الأستاذ الشيخ محمد عبده والذين قاموا فى أثره . وكان غرض الدعوة إلى الجامعة الإسلامية تجنيد الرأى الإسلامى ضد غزوة أوربا المسيحية وقد أيد الباب العالى مؤيد الخليفة هذه الدعوة بكل ما لديه من قوة . على أن هذه الدعوة وجدت فى غزو الحضارة الأوربية من قوة المقاومة ما ضعضعها ، ذلك بأن الشعوب الإسلامية شعرت شعوراً عميقاً بضرورة الاستفادة مما كشفت عنه حضارة الصناعة وما روجت له هذه الحضارة من تنظيم أسباب الحياة فى المسكن والملبس ووسائل العيش . أما التجديد الدينى فقد قام على أساس شعور عميق عند الشيخ محمد عبده وعند طائفة من أنصاره وأصحابه بأن الجمود الذى استولى على الإسلام والمسلمين إنما كان سببه إقفال باب الاجتهاد وأخذ الناس بالتقليد الأعمى وترويج خرافات وأوهام باطلة ونسبتها إلى الدين واعتبار الخارج عليها وغير المؤمن بها ملحداً يرمى بالتكفير . وقد بنى

الأستاذ الشيخ محمد عبده دعوته على الإسلام الصحيح الإسلام المستند إلى القرآن وإلى السنة ، الإسلام الذى أراد أن يحرر العقول والأفهام من كل معنى من معانى الوثنية ، هذا هو الإسلام الذى ينقذ المسلمين ويرد إليهم مجدهم . أما هذا الإسلام التقليدى الذى جاءنا بعد ثلاثة عشر قرناً تداولته فيها أعاصير السياسة ودست فيه الفكرة الاستبدادية من الأوهام ما يمكن للمستبدين ويجعل لهم السلطان المطلق فلا يمكن أن تقوم على بدعة وأوهام أمة من الأمم ترجو فى الحياة سؤدداً أو مجداً . ومع أن الميدان الذى عمل فيه الأستاذ الشيخ محمد عبده لم يتناول إلا الشؤون الدينية البحتة فى حدود ما يطلق عليه الإفرنج التيولوجيا . وبالرغم من أن الشيخ كان يعمل لإصلاح الأزهر وصلاح حال رجاله ، فقد قام هؤلاء الرجال فى وجهه أشد قومة وحاربوه أشنع الحرب ورموه بالإلحاد والكفر واعتبروا الدعوة التى كان يدعوا إليها — والتى تعتبر فى نظرنا متواضعة غاية التواضع إلى جانب ما دعا النبى عليه السلام إليه من حرية الفكر والفؤاد والقلب — دعوة إلحادية جدير بصاحبها أن يبوء بغضب صاحب العرش وأن يبوء بغضب الجمهور . على أن شخصية الشيخ محمد عبده الممتازة تركت فى العالم الإسلامى أثرها وأتاحت للمسلمين أن يتخلصوا ولو تخلصاً ضعيفاً من سلطان التقليد الأعمى ومن سلطة الدجاجلة الذين يتقدمون إليهم باسم الدين يسممون عقولهم وأفكارهم بالخرافات والترهات .

لم تصادف الدعوة إلى الجامعة الإسلامية من النجاح إلا حظًّا نظريًّا صرفاً . وظلت دعوة الأستاذ الشيخ محمد عبده محصورة فى حدود ضيقة لأن برنامجاً إنشائيًّا لم يوضع لها ولأنها لم تبلغ من الجرأة فى هدم الأوهام المبلغ

الذى يطوع لها حقها الكامل من النجاح . وفى هذه الأثناء كان غزو أوربا مطرد التقدم . وفى هذه الأثناء كانت العناصر غير الإسلامية فى العالم الإسلامى تتعلم وتتقدم وتنال الحظوة والثروة . وفى هذه الأثناء كان رجال الدين فى شغل بالمناقشات البيزنطية العقيمة وبرمى الشيخ عبده وأصحابه بالإلحاد والمروق وبمثل هذه التهم التافهة التى لا تروج إلا فى عصور الانحلال والتدهور وتحت سلطان الاستبداد والطغيان . وكانت مصر قد امتد إليها النفوذ الأوربى بأكثر مما امتد إلى الإمبراطورية العثمانية المترامية الأطراف فجعل هذه المدنية العربية ومبادئها وما تدعو إليه محسوساً فيها مقدراً من أهلها . والمدنية الغربية كانت دعامتها العقلية حرية الرأى والفكر وتحطيم أغلالها أيًّا كان نوع هذه الأغلال . إذن فلابد أن كانت هذه الحرية مصدر هذه القوة العجيبة التى طوعت لأوربا أن تغزو الشرق وأن تغزو العالم الإسلامى هذا الغزو المريع . فلنأخذ بالحضارة الغربية ولننسج على منوال الغرب . وكذلك قامت الدعوة إلى نظام فى الحكم كالنظام القائم فى الأمم الأوربية وإلى تعليم كالتعليم الموجود فى أوربا وإلى ثقافة غربية بحتة . وحسب بعضهم أن لا مفر من هذا أو يقضى على الشرق القضاء الأخير . وغلا بعضهم فى ذلك حتى رأى واجباً أن يقطع العالم الإسلامى صلاته بالماضى كله وأن يستل عن المدنية الغربية بحذافيرها . وهذه الدعوة هى ما يسميه مؤلفو الكتاب الذى أوحى إلينا بهذا الفصل بهذا الاسم العجيب : تغريب الشرق .

ويلاحظ الأستاذ « جب » وزملاؤه المؤلفون أن أصحاب هذه الدعوة نسوا أن مظاهر حضارة الغرب تعتمد على أصول قديمة وإلى ثقافة عريقة وأن نقل الظاهر وحده لا يكفى لإقامة هذه الحضارة . وهذه ملاحظة أبداها

منذ عشرات السنين اللورد « ملنر » فى كتابه « إنجلترا فى مصر » عن سعى الخديو الأول « إسماعيل باشا » لنقل مظاهر الحضارة الغربية إلى مصر . لكنا لا نوافق الأستاذ « جب » على ملاحظته ونقف منها موقف الناقد للغرب فى حضارته القائمة على الأثرة والأنانية والمشبعة من المادة الاقتصادية بروح هى التى خلقت لأوربا متاعبها فى الحرب ومتاعبها الحاضرة . فقد أدرك هؤلاء المصريون أن مظاهر الحضارة الغربية ترتكز إلى أسس رآها بأعينهم من سافروا منهم إلى أوربا وتغذى منها من درسوا فى الجامعات الأوربية ومن اطلعوا على أدب الغرب . ولذلك قاموا فى مستهل هذا القرن العشرين يدعون إلى إنشاء جامعة على نظام جامعات أوربا يكون لها استقلالها ويكون للعلم فيها أساسه الصحيح من حرية البحث والتفكير . لكنهم ما كادوا يفعلون حتى وقفت السلطات الرسمية الخاضعة لنفوذ إنجلترا فى مصر منهم موقف الخصومة وحتى دعا لورد « كرومر » الأهالى والأعيان المصريين الذين طلب إليهم أن يكتتبوا لإنشاء هذه الجامعة كى يكتتبوا لإنشاء الكتاتيب ، وظلت الجامعة بعد ذلك تحارب فى السر وفى العلن ولا يزال ذلك شأنها إلى وقتنا الحاضر . وهذا عجيب ، فقد كان المسلمون لا يكادون ينزلون بلاداً يفتحونها حتى يمهدوا منذ أول نزولهم فيها لتشييد بناء حضارتهم بها . ولم يكن يدور بخاطرهم أن يحرموا أهل هذه البلاد من النهل من أصول هذه الحضارة ومصادرها . فوقوف ممثلى الحضارة الغربية فى وجه انتشارها بصورتها الصحيحة واكتفاؤهم بتناول الشعوب الأخرى مظاهرها وآثارها غير متمثلة ، أنانيةٌ غير جديرة بالدعوة إلى الحضارة وإلى التقدم . على أن ما حدث من هذا كان له أثره الحسن . فقد شجع القادرين على أن يرسلوا بأبنائهم إلى أوربا ليدرسوا فى جامعاتها على ما فى ذلك من كلفة

ومشقة . وازداد عـــدد هؤلاء وكثروا فى مصر . كما حذت الأمم الإسلامية الأخرى حذو مصر وعاد هؤلاء وأولئك إلى بلادهم يبثون الحضارة الغربية . لكنهم ما لبثوا أن صدمتهم ظاهرتان عجيبتان أثارتا دهشتهم لتناقضهما مع أصول الحضارة الغربية تناقضاً بيناً : الأولى هذه الحـرب المنظمة التى يقوم بها الاستعمار الأوربى لحرية العقل حرية مستندة إلى النظام الجامعى الذى يقرر البحث الحر الطليق من كل القيود ، سواء أكانت دينية أم غير دينيـــة والمستند إلى القواعد العلمية الصحيحة ، قد راعهم من هذه الحرب أنها لم تكن تقبل هوادة قط ، وأن ممثل إنجلترا فى مصر لم يكن يأبى أن يكتب فى تقاريره أن مصر بغير حاجة إلى علماء بالمعنى الغربى وإنما هى بحاجة إلى موظفين مطواعين . والظاهرة الثانية انتشار المبشرين الغربيين فى كل مكان فى المدن الكبيرة والصغيرة بل فى القرى ، يدعون إلى المسيحية ولا يأبون التعريض بالإسلام . وبالرغم من هاتين الظاهرتين ظل هؤلاء الشبان يدعون إلى الحضارة الغربية مستندة إلى أصلها الصحيح ، أى إلى حرية البحث ونزاهة العلم ، ويدعون إلى ذلك فى حرارة لم يكن من شأن الجامدين على التقليد الدينى الذين رموهم بالإلحاد إلا أن زادوها قوة واستعارا . لكن مرور الزمن فتح عيونهم على حقيقة أخرى لم تكن أقل إثارة لدهشتهم من الظاهرتين اللتين قدمنا . فما يصدّر الغرب للشرق من آثار حضارته قد وقف أو كاد عند أسوأ ثمرات الغرب من الربح المادى مما يمده بأسباب الرخاء والترف . فتجارة الرقيق الأبيض والكحول ومواد الزينة واللهو وجوقات الهذر المسرحى كانت هى أول ما يصدم الناظر لآثار الغرب فى الشرق . ولم يقدم الغرب إلى جانب هذا من صالح ثمرات حضارته ما يستر سوآتها هذه . بل هو كما قدمنا وقف حائلا دون سرعة

انتشار العلم الصحيح مما كان هؤلاء الشبان يجاهدون بكل ما يدخل فى حدود طاقتهم لنشره والتمكين له .

* * *

ظلت الحال كذلك إلى أن أعلنت الحرب الكبرى ودخلتها تركيا إلى جانب ألمانيا . وكان من أثر انتصار الحلفاء أن قضى على الرجل المريض – الإمبراطورية العثمانية – وأن وضع الحلفاء أيديهم على بلادها المختلفة ، وخضوع العالم الإسلامى كله فيما خلا تركيا وفارس وأفغانستان وشبه جزيرة العرب إلى النفوذ الأوربى مصوراً فى صورة الانتداب أو الاستعمار أو الاحتلال العسكرى أو ما شئت من هذه الأسماء المختلفة اللفظ المتفقة المدلول . وجاء فى أثر ذلك أن خلعت تركيا الخليفة السلطان « عبد المجيد » ، وأن نفته وأهله ، وأن أعلنت رغبتها عن الخلافة . وربما شعرت الأمم الإسلامية التى تحررت من النير التركى بشىء من التخفيف عنها أول الأمر. فقد كانت هذه الأمم متعطشة من زمن بعيد إلى نهضة تنهضها وينهضها الإسلام وكانت ترى فى تركيا وفى الاستبداد التركى وفيما كان الرأى عند ساسة الترك قبيل الحرب من تتريك العرب حائلا دون هذه النهضة . وقد بذلت دول الغرب أثناء الحرب وفى أعقابها من الوعود وتغنت من أغنيات السلام والعدل المجرد من الهوى والحرية التامة الشاملة وحق الشعوب فى تقرير مصيرها بما جعل هذه الشعوب الإسلامية تطمع فى بعث جديد تناله فى ظل هذه المعانى . لكن تعاقب السنين من بعد الحرب كشف عن الحقيقة المضنية المؤلمة ، فهذه الأغنيات كلها لم تكن إلا وهماً وخداعاً . وقضية أوربا التى حاربت فى سبيلها أربع سنوات تباعاً والتى بذلت فيها

مهج أبنائها وملايين ما كدست من الثروة على مر السنين لم تكن إلا قضية الاستعمار ومن يكون له حق التوسع فيه : دول الوسط أم الحلفاء . ثم بدت حقيقة أشد من هذه الحقيقة مرارة وإيلاماً . تلك أن الغرب الذى تزعم دوله أنه تحرر من قيود التعصب الدينى ما زال يذكر الحروب الصليبية التى نشبت خلال القرون بين المسيحية والإسلام ، وأن كلمة لورد « اللنبى » يوم استولى على القدس وقوله إن الحروب الصليبية قد انتهت كانت تعبر عن معنى يجول بخاطر الدول الأوربية جميعاً وإن كان هذا الجندى المقـــدام هو الذى صرح بهـا وكشف عنها . فى ظل هاتين الحقيقتين الأليمتين جعلت دول الغرب التى وضعت يدها على العالم الإسلامى تمد فى أسباب الجمود الدينى عن طريق الجامدين المتعصبين لتزيد الشعوب الإسلامية جموداً وليزيدها الجمود ضعفاً ، وجعلت تحمى الجماعات التبشيرية الدينية وتمدها بكل ما تستطيع من قوة وتحاول أن تحطم كل قلم وكل رأس يقف فى وجه هؤلاء وأولئك .

هنا كانت اليقظة المرعية ، يقظة هؤلاء الشبان الذين درسوا فى أوربا وجاءوا ينشرون فى البلاد الإسلامية لواء حضارة الغرب . ما هذا ؟ إلى أى حضيض يهوى أهل هذه الحضارة ؟ وكيف تطوع لهم ضمائرهم أن يستخدموا العلم الإنسانى لإذلال الإنسانية ولإهدار كرامتها ؟ وكيف تظل أوربا على تعصبها الدينى الممقوت الذى انبعثت جنودها فى القرون الوسطى باسمه لمحاربة المسلمين ؟ ! وكيف تسيغ أوربا فى سبيل الحياة المادية وترفها وأن تحول بين شعوب كاملة ، بل بين عالم بأسره ، وبين النور المقدس الذى يضىء به الله الأرواح والقلوب من طريق العلم والمعرفة ! ! وكيف تطمع المسيحية فى أن تكتسح الإسلام وهو أسمى الأديان التى دعت

إلى الحرية الحقة ما أخذ فى صفاء جوهره وما نُفيت عنه هذه الترهات التى أضيفت إليه على أنها منه وهى ليست منه ؟!! وقامت لذلك فى نفوس هؤلاء الذين ألقى إليهم النهوض بأعباء الحركات القومية التى اهتزت بها أمم الشرق فى أعقاب الحرب ثورةٌ على هذه الأساليب التى لجأ الغرب إليها. وجعل كل يفكر . وكانت ثمرات هذا التفكير هى ما ذكر الأساتذة « ماسنيون » و « كمبفمابر » و « برج » واللفتنانت كولونل « فرار » فى فصول كتاب « وجهة الإسلام » .

جعل الكل يفكر فى سبيل الخلاص من استعمار الغرب وتبشيره . فأخذ جماعة بمذهب الرابطة الشرقية تربط أمم الشرق الخاضعة للنفوذ الغربى جميعاً ، وأخذ آخرون بمبدأ الجامعة العربية يظل لواؤها الذين يتكلمون العربية جميعاً . وفكر آخرون فى إحياء الخلافة لتربط من جديد بين الأمم الإسلامية ، ولكن على أن تكون خلافة روحية ليس لصاحبها سلطان زمنى ، ورأى بعضهم التمسك بمبدأ القومية ومقاومة الاستعمار الغربى بأسلحة الحضارة الغربية . وفكر جماعة فى رفض ماضيهم الإسلامى والأخذ بماضيهم السابق على الإسلام كما فعل الأتراك وكما يجول بخاطر بعض أهل الغرب الأقصى من المراكشيين . وكانت لهذه الصور المختلفة من التفكير مظاهرها العملية . فقد تألفت جمعية الرابطة الشرقية فى مصر كما تألفت فيها جمعية الشبان المسلمين وانعقد فيها فى سنة ١٩٢٥ م مؤتمر الخلافة . وتألفت فى الهند جمعية الخلافة وكان مولاى « محمد على » على رأسها إلى حين وفاته . كما أن الدكتور « إقبال » من أكبر دعاتها وإن ظل الدكتور « أنصارى » إلى جانب « غاندى » من دعاة القومية الهندية . وانعقد مؤتمر إسلامى بمكة فى سنة ١٩٢٧ م كما انعقد فى القدس

سنة ١٩٣١ م : وبدت فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى كله ثورة نشاط قوى دلت على أن التبشير لن ينال أى نجاح أكثر من إثارة الشعوب الإسلامية عليه وعلى أن الاستعمار لن يكون من أثره إلا إثارة الكراهية والمقت فى قلب الشرق وفى قلب العالم الإسلامى للغرب وحضارته المادية التى هوت بأساسها ، حرية العقل ، إلى صور من الأدب ومن الموسيقى ومن الرقص ومن ألوان الحيـــاة والترف تدل على أن هذه الحضارة قد آذنت بالأفول ، وأنها تخطت جانب الصعود إلى جانب الانحدار والتدهور .

وكان تهدم الحضارة فى الشرق من أقوى العوامل لبث هـــذه الآراء ولتدعيم كل مظاهر نشاطها . والذين يقومون بأمر الصحف فى الشرق ويؤيدون هذه الأفكار الثائرة على الغرب وعلى استعماره وتبشيره كثرتهم الساحقة إن لم نقل كلهم من الذين تعلموا علوم الغرب وكانوا يبشرون بحضارته ومن الذين يؤمنون ما يزالون بأن الأساس الذى قامت عليه ، حرية العقل والتفكير وحرية البحث العلمى بحثاً جامعيًّا منظماً ، هو خير أساس تقوم عليه حضارة ، على أن لا ينكر هذا الأساس حاجات الروح للاتصال بالعالم على أنه فكرة لا على أنه آلة ، وعلى أن لا ينكر كذلك على العاطفة وعلى وحى النفس وإلهام الفؤاد سلطانهما فى الحياة ؛ وعلى أن ينظر إلى العالم على أنه كل له وحدته العليا ، لا على أنه كم مادى يستطيع العقل أن يصل إلى كنه كل ما فيه بالتحليل والتشريح وبأدوات البحث العلمى الناقصة غاية النقص ما تزال .

ليس يكفى إذن لإقناع الغرب بأنه غزا الشرق فى كل ميادينه أن تكون أساليب الغرب فى الحياة وكسب العيش قد انتقلت إلى الشرق فأصبح يستعمل الآلات الزراعية الغربية فى زراعته والصناعية فى صناعته

وأنه أصبح يلبس لباس أهل الغرب ويأكل على طريقتهم وينتقل بوسائل انتقالهم . بل ليس يكفى لهذا الاقتناع أن ينقل الشرق أساليب حكم الغرب . فهذه كلها مظاهر خارجية إن بهرت النظر فقد لا يكون لها فى دخيلة النفس أثر . وهذا ما يلاحظه الأستاذ « جب » بمنتهى الدقة : حيث يقول : « إن مستقبل – التغريب – وما سيكون له من أثر فى العالم الإسلامى لا يتعلق بأى من هذه الاستعارات الخارجية . فالأشكال الظاهرة فى المحل الثانى . والأمر كذلك فى هذه الشؤون – الاجتماعية – أكثر منه فى الشؤون المادية . فكلما كان التقليد الظاهر أكثر دقة كان التمثل الداخلى أقل قياماً . ذلك بأنه كلما ازدادت الإحاطة بالروح والمبادئ التى تقوم عليها الأشكال الظاهرية دقة ارتبط بها عادة قصور ما تقتضيه الظروف المحلية لاقتباسها . وقد يتهدم كثير من النظم الغربية ومع ذلك لا يكون العالم الإسلامى أقل – تغرباً – مما كان ، بل لقد يكون أكثر تغرباً . ولو أننا أردنا أن نعرف القدر الصحيح الذى أثرت به الثقافة الغربية فى الإسلام فإنا يجب أن ننظر تحت السطح وأن نوجه نظرنا فى المحل الأول للأفكار والحركات القائمة على أساس من التمثل الخالق للفكر الغربى بعد تحضير داخلى فى النفس عميق . أما ما سوى ذلك فسطحى كله . ومهما يكن العمل دقيقاً وشاقًّا فإنا يجب أن نبذل جهدنا لنميز من بين ما استورد من موارد الغرب ، الفاسد أكثرها ، والتى تزحم الآن أسواق الإسلام وميادينه ، تلك التى تقيم الأسس الأولى لبناء ثقافة جديدة » .

وهنا يمس الأستاذ « جب » جوهر المسألة ويتحدث عن التربية والتعليم وعن إقامة نظمها فى العالم الإسلامى على أسس غربية . وهو فى الوقت نفسه يتحدث عن الصحافة وعملها وسلطانها فى إقامة أساس الثقافة الجديدة .

وهو يقول إن التربية والصحافة ومقومات الحياة كانت أكثرها ترمى إلى التفرقة بين الحياة الزمنية والحياة الروحية الدينية ؛ فليس شيء من شئون هذه الحياة يصح أن تسبغ عليه الطابع الدينى إلا ما كان دينيًّا بطبعه . وقد استطاعت الثقافة فى نظر الأستاذ « جب » أن تحقق هذه الغاية . يقول الأستاذ : « إذا كان الإسلام كدين لم يفقد إلا قليلاً من قوته فهو كنظام للحياة الاجتماعية ، قد نزل عن عرشه وقامت إلى جانبه أو من فوقه قوى جديدة لها من السلطان ما يتعارض فى بعض الأحيان مع تقاليده وتنظيماته الاجتماعية وهى مع ذلك تقوم فى موقف الاحترام منه . ولنصف الواقع فى أبسط صوره فالذى حدث هو ما يأتى : إلى عهد قريب كان المسلم المزارع أو ساكن المدينة وليست له مهام ولا واجبات سياسية ، وليس له أدب سهل التناول غير الأدب الدينى ؛ وليس له أعباء ولا حياة عامة إلا ما اتصل بالدين ، ولم يكن يرى من الحياة الخارجية إلا قليلاً أو لاشيء إلا من خلال المنظار الدينى . فالدين كان إذن كل شيء عنده . أما اليوم فقد انفسحت مهامه فى الأمم التى أصابت حظًّا من التقدم ولم يبق نشاطه محدوداً بالدين . فهو يقرأ أو تقرأ له فصول شتى فى شؤون من كل نوع لا علاقة له بالدين ولا تناقش فيها وجهة النظر الدينية على الإطلاق ويكون الحكم فيها لنظريات ومبادئ لا شأن للدين بها . وهو يجد فى كثير من متاعبه ومنازعاته أن لا فائدة له من التقدم إلى المحاكم الشرعية وأنه إنما يقيده قانون مدنى قد لا يعلم من أين يستمد سلطان نفاذه ولكنه يعلم أنه لا يستمد هذا السلطان من القرآن ولا من السنة . ولم تبق الشؤون الدينية شاغله الوحيد فى صلاته بغيره من مواطنيه بل أخذت المشاغل والمهام الزمنية بنظره وتقديره وبذلك خفت سلطة الإسلام فى الحياة الاجتماعية

وتراجعت شيئاً فشيئاً إلى ميدان من النشاط أشد ضيقاً ، وقد تم كثير من ذلك عن غير وعى وحس ؛ وبين نسبة قليلة من المتعلمين كان الشعور بهذا الذى تم . والذين حاولوا إتمامه عن إدراك وشعور كانوا أقل من أولئك نسبة » . وهنا يجب أن نعترف بأن الأستاذ « جب » قد لمس الحقيقة كما لمسها من قبل . لكنا نعتقد من ناحيتنا ، مع الاعتراف بما كان لدوافع الحضارة الغربية من أثر فى التطور الذى أشار الأستاذ إليه ، أن هذا الاتجاه الحديث الذى تأصل فى نواح كثيرة من نواحى الحياة الإسلامية إنما دفع إليه الثورة على الجمود وعلى التقليد الأعمى وعلى الخرافات والأوهام القديمة وعلى هذا الازدراء بالعقل الإنسانى وبحريته مما امتازت به المدرسة العتيقة التى كانت سبباً فى تدهور الإنسان وانهيار الشعوب الإسلامية . وليس أدل على ذلك مما لاحظه الأستاذ « جب » وزملاؤه مؤلفو « وجهة الإسلام » من أن كثيرين من الشبان الذين حملوا ألوان الحضارة الغربية وصاروا يبشرون بها قد عاد الكثيرون منهم يشعرون شعوراً قويًّا صادقاً بأنهم فى حاجة إلى أكثر مما تمدهم الحضارة الغربية به ، وأنهم لذلك يجب أن يلجأوا إلى تراث السلف من المسلمين لالتماس ما ينقص هذه الحضارة الجديدة . وزادهم شعوراً بهذا النقص أن رأوا الفكرة القومية تقوم فى الغرب على نضال اقتصادى عنيف لا يعرف هوادة ولا يقف فى وجهه اعتبار من قواعد الخلق أو من الإخاء الإنسانى أو من المودة والرحمة . نضال فى سبيل المادة بين أهل البلد الواحد وبين الدول المختلفة هو الذى كان مثار الحروب ومثار أسباب الشقاء والتعس فى هذا العصر من عصور الإنسانية . وقد زادت الصناعة التى كانت وما تزال مظهر هذه الحضارة بآلات الحرب بشاعة وقسوة ، فهل ترى يجد العالم

الإسلامى فى تراث الماضى ما يشفى غلة روحه مما عجزت الحضارة الغربية عن أن تقوم به وما يقيم حياة جديدة وحضارة جديدة ليس فيها هذا الجشع المادى الفظيع الذى يهوى بالإنسان إلى مرتبة لا ترضاها النفس الفاضلة ؟ ! إن هذا التراث قد اختفى تحت طبقات وطبقات من أباطيل عصور الانحلال الذى أصاب العالم الإسلامى قروناً متواصلة فليكن من عمل رجال العالم الإسلامى أن يزيحوا أكداس هذه الطبقات ، وأن يعيدوا إلى الوجود فى إحدى صور الوجود وعلى طريقة علمية صحيحة ما يشتمل عليه هذا التراث الذى غزا العالم وغذاه بأدوات الحضارة أجيالاً وقروناً طويلة .

عند هذه النقطة يقف العالم الإسلامى اليوم . ومظهرها الصريح الواضح أن أولئك الذين كانوا دعاة الحضارة الغربية وحملة أعلامها والذين بلغوا من إدراك حقيقتها أن وقفوا على هذا العجز والقصور فيها هم الذين يقومون اليوم بهذه الدعوة ، وكثيرون منهم هم الذين يقومون اليوم بهذا البحث . أولئك يشعرون شعور الواثق بأنهم سيجدون لا ريب فى هذا التراث ما يبعث إلى عالم اليوم الرازح تحت ظلمات المادة ضياء روحياً هم وحدهم القديرون على بعثه من جديد لأن اتصاله بروحهم دون روح الغرب هو الذى يذكى ضياءه . ويوم يوفقون إلى هذا فسيتاح للعالم الإسلامى بموقعه الجغرافى بين الغرب والشرق وبين المسيحية والديانات الآسيوية أن يمد يداً إلى ناحية ويداً إلى الأخرى ليرتفع بهؤلاء وأولئك إلى ميادين الحضارة الصحيحة ، الحضارة التى تدرك وحدة الوجود على وجهها الصحيح . الحضارة التى تقوم على أساس الإخاء وتقول إن المرء لا يكمل إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ، الحضارة التى تبث فى أنحاء الحياة بسمات

السعادة الصحيحة وتضيئها بنور الحق الذى يقف محجوباً بحجب المكان والزمن . الحضارة التى لا تعرف إسلاماً لغير الله ولا تعرف للحق حدوداً ولا لحرية العقل قيوداً . والتى تنير ظلمات العيش بالشفقة والرحمة والإيثار وإطعام المسكين وابن السبيل والمؤاخاة بين الناس جميعاً أيًّا كانت أجناسهم وعقائدهم والمغفرة للمذنب والمحبة المنبثة فى أرجاء الكون كله والتى تندس اليوم إليها هموم المادة فتحيلها عداوة وحسداً وتقيمها كما تقيمها حضارة الغرب على أساس من حرب الطبقات . .

يوم ينهض الإسلام بهذا العبء العظيم يستمده من ماضيه بعد أن يكشف عن نوره ليضيء العالم كله ، يومئذ يبدأ العالم يشعر بنعمة السلام الحق المنبعث من أعماق قلوب ملئت رحمة وعطفاً ومحبة : أما إلى يومئذ فستظل المادة حاكمة متحكمة ، وسواء أكان النظام الذى يجعل الحكم للمادة بلشفيًّا أم كان نظام رأس المال فالشقاء حتم على الإنسانية لا محالة . ذلك بأن حكم المادة هو حكم الوحشية التى تستطيب الدم والدماء والموت ، أما حكم العقل والروح وما يستمدانه من كل ما فى الكون من مودة ورحمة فحكم الإخاء الذى لا سبيل غيره إلى السعادة والسكينة والنعمة والسلام .

مصادر الكتاب

الفصل الأول : الشرق والغرب

١ – فى العصور الوسطى :

السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٣٢ فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٣٣

٢ – إبان البعث الأوربى

السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٦٠ فى ١ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ١٢

٣ - الحضارة الاستعمارية :

السياسة الأسبوعية ملحق العدد ٣٢٨٥ فى ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٣٣ صفحة ٨ .

الفصل الثانى : الشرق فى طور بعثه

١ أثر الحركات الفكرية فى بناء الأمم :

(ا) محاضرة ألقيت بحلب عام ١٩٥٣ بدعوة من دار الكتب الوطنية بها .

(ب) السياسة الأسبوعية فى ٩ أبريل سنة ١٩٢٧ .

٢ - الحرب وحركة التجديد فى الشرق :

السياسة الأسبوعية العدد ١٠٣ فى ٢٥ فبراير سنة ١٩٢٨ ص ١٠ .

٣ – حضارة الشرق متى تبعث من جديد :

السياسة الأسبوعية العدد ١٤٧ فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٢٨ ص ١ .

الفصل الثالث : البوذية

١ - أصول البوذية :

السياسة اليومية العدد ٢٩٠ فى ٤ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .

obeikandl.com

٢ – **مميزات البوذية :**

السياسة اليومية العدد ٢٩٦ فى ١١ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .

٣ – **النظر :**

السياسة اليومية العدد ٣٠٨ فى ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٢٣ صفحة ٣ .

٤ – **العمل :**

السياسة الأسبوعية العدد ٣١٥ فى ٢ نوفمبر ١٩٢٣ صفحة ٣ .

الفصل الرابع : غاندى

١ – **غاندى والسلام :**

بحث كتب فى يناير ١٩٥٣ فى ندوة غاندى بالهند .

٢ – **أساليب غاندى وكيف تخفف حدة التوتر داخلياً ودولياً :**

بحث كتب فى يناير ١٩٥٣ فى ندوة غاندى بالهند .

٣ – **حول الهند :**

محاضرة بعنوان مشاهدات فى الهند عقب ندوة غاندى سنة ١٩٥٣

الفصل الخامس : الإسلام والحضارة الجديدة

١ – **القوة الروحية فى الإسلام :**

مجلة الشباب العدد الأول فى ١٧ فبراير ١٩٣٦ ص ٧ .

٢ – **أوربا والإسلام ولم لا يتفاهمان :**

مجلة الشباب العدد ٤ و٧ و١٢ فى ٩ و٣٠ / ٣ و ٦ / ٥ / ١٩٣٦ .

٣ – **وجهة الإسلام :**

ملحق السياسة رقم ٢١٣١ فى ١٤ أكتوبر سنة ١٩٣٣ ص ١٠

obeikandl.com